

معالم منهج المستشرقين في ترجمة القرآن الكريم جاك بيرك دراسة تطبيقية

جازية فرقاني

جامعة وهران

الجزائر

mirdjaz@hotmail.fr

مقدمة:

ظل القرآن الكريم إلى يومنا هذا مثار دهشة الغرب كما شكل أيضا محورا في الدراسات الإستشراقية بما أحدثه من تغيير في المجتمع الإسلامي وما أضافه من قيم ورسمه من مناهج وضعت للمسلم في كل بقاع العالم المسالك الصحيحة والطرق الواضحة للفوز بالدنيا والآخرة.

لقد تنوعت مناهج المستشرقين في دراسة القرآن الكريم، وتراوحت بين منهج تاريخي ينزع إلى ترتيب الوقائع التاريخية والسياسية للحصول على أكبر قدر ممكن من المعلومات والمعارف حول الموضوع المراد دراسته، ومنهج تحليلي قوامه تفتيت الظاهرة الفكرية إلى مجموعات من العناصر ومنهج إسقاطي تحكمه رؤية الباحثين وأحكامهم المسبقة بالإضافة إلى مناهج أخرى كانت نتائجها في "أغلب الأحيان منافية للمبادئ الإسلامية، لأنهم فسروا النصوص القرآنية وحاولوا تطويعها وفق النتائج المفترضة مسبقا".⁽¹⁾

والثابت أن النص القرآني نص انفرد بخصوصية في الأسلوب مما أدى إلى عجز علماء اللغة عن تصنيفه و"اعتبروه أسلوبا فريدا من نوعه فهو ليس نثرا وليس شعرا إنما هو قرآن... لأنه مقيد بقيود لا توجد في غيره، يتصل بعضها

بأواخر الآيات وبعضها بالنعمة الموسيقية الخاصة به وليس شعرا لأنه غير مقيد بقيود الشعر".⁽²⁾

ومع ذلك، عندما يقدم الإنسان على قراءة آيات من المصحف الشريف يشعر وكأنه إبداعا مقفى وموزونا منبعثا من تتابع آياته وتآلف كلماته وتركيب حروفه وتنسيقها بحيث يؤدي اجتماعها إلى بعض تحقيق لحن يفرض نفسه على قارئه لأن "الكلمات فيه مختارة غير مبتذلة ولا مستهجنة، لكنها رقيقة رائعة معبرة، والجمال فيه ركبت بشكل رائع حتى أن أقل عدد من الكلمات تعبر عن أوسع المعاني وأغزرها وهو ما يجعل تعابيره موجزة لكنها مدهشة في وضوحها، كما أن كلام القرآن يبدو فوق طاقة البشر في سمو قانونه النفسي، فالعقل ينسجم تماما عبر آياته، مع العاطفة، حتى نشعر أن للكلمات قوة الإقناع بالعقل والتأثير على العاطفة معا".⁽³⁾

إن الإعجاز القرآني الذي لا يقتصر -في رأي الفقهاء- على نظمه وبلاغته فحسب وإنما يمتد ليشمل مجالات أخرى جعل المسلمون لا يترددون "في بذل أعز ما يملكون من دم ومال دفاعا عن دستور الإسلام الأعلى وحفاظا على الصورة التي أنزل عليها بألفاظها وتراكيبها لكي تبقى آية إعجاز وبرهان عجز".⁽⁴⁾ فتعددت تبعا لذلك رؤاهم ومواقفهم وذهبوا مذاهب مختلفة فمنهم من لم يجز ترجمة القرآن بل و "أجمعوا على عدم إمكان ترجمة القرآن بمعانيه الأصلية ومعانيه البيانية التي اشتمل عليها، لذلك لا تسوغ الترجمة وإن حصلت، فإنها لا تعد قرآنا لما في ذلك من التحريف والتبديل".⁽⁵⁾ لكن اعتراض بعض العلماء والفقهاء على فكرة الترجمة واجهة شيخ الأزهر يدافع على الفتوى التي تجيز الترجمة مستندا إلى أقوال الأئمة في المذاهب الفقهية كما أنجز "محمد مصطفى المراغي"

بحثا مستفيضا يوضح فيه كيف أن رسالة النبي محمد صلى الله عليه وسلم لا سبيل إلى تبليغها إلى العالم أجمع إلا عن طريق الترجمة فلا خطر في هذا ولا خوف على القرآن الكريم "لأنه متن علم الناس علما لا لبس فيه أن الترجمة ليست قرآنا، وليس لها خصائص القرآن وأنها لا تحمل الإعجاز الموجود في النظم العربي، بل ولا تحمل معاني النظم العربي جميعا وإنما تحمل المعاني التي فهمها المفسرون... حصلت الطمأنينة التامة إلى أن التراجم لا تأخذ قدسية القرآن العربي".⁽⁶⁾

وعلى هذا الأساس، يمكن أن نقسم الترجمات الموجودة في كل اللغات إلى ثلاثة أقسام بالاعتماد على المترجمين في حد ذاتهم:

1- الترجمات التي وضعها غير المسلمين ممن أتقنوا اللغة العربية وبحوثا فيها وفي تراثها من أمثال، بلاشير وشوراكى.

2- الترجمات التي وضعها المسلمون من غير العرب وهم أولئك الذين تعلموا العربية ودرسوا التراث العربي واهتدوا إلى الإسلام فجاءت ترجماتهم تعريفا بالدين وخدمة له من أمثال "جاك بيرك"، "عبد الحكيم خان"، "الميرزا أبو الفضل آبادي".

3- أما القسم الثالث فهو الذي وضعه العرب الذين أتقنوا لغات الشعوب الأخرى وهذا القسم ضريان:

أ- ضرب جاء ردا على الترجمات التي اطلع عليها هؤلاء بحكم معرفتهم هذه اللغات الأجنبية مما كشف لهم عن مساوئ هذه الترجمات التي شوهت النص الأصلي وحادت عن المعاني المتضمنة فيه إلى معاني أخرى تبعده عن قصده لكن هذا الضرب من المترجمين لم تكن نتائج إنجازاتهم مرضية بشكل عام فقد أخفق البعض منهم إما لجهله بجنبايا اللغة العربية وكنه صنعها بخاصة لغة القرآن الكريم

وإما لعدم إتقانهم للغة الأجنبية بالشكل الذي يجعلها مطوعة في خدمة كل من نص الانطلاق ونص الوصول يقول "صلاح الدين كشريد": "... وأما الترجمات التي قام بها المسلمون فأعيب على بعضها لغتها الفرنسية الضعيفة وترجمتها الحرفية التي تؤدي إلى جمل غامضة لا معنى لها بالفرنسية".⁽⁷⁾

ب- أما الضرب الثاني فقد قام به عرب ليسوا مسلمين، وقد أفلح بعضهم في تقديم ترجمات تخدم النص الأصلي وذلك لمعرفة الدقيقة بلغة القرآن. وبناء على ما سبق يمكن القول إن ترجمة القرآن الكريم نبعت من قناعتين: إما للاطلاع عليه والاستفادة منه وإما لمحاربته بعد الوقوف على مضمونه "لأن دافعهم الأول في كل إنتاجهم هو دافع ديني واستعماري. فكرس بعضهم جهوده من أجل إقناع المسلمين ببطلان الإسلام واحتداجهم إلى الدين المسيحي ووصفوا القرآن بأنه نسيج من السخافات وأن الإسلام مجموعة من البدع".⁽⁸⁾ فقد هدف بعض المستشرقين إلى إيجاد حاجز بين القرآن وبين من يريد فهم الإسلام فشوهوه وتغاضوا عن أيسر قواعد اللغة ونظام التركيب ومعاني المفردات ولم يعتمدوا منها علميا دقيقا لتقضي الحقيقة.

ومهما يكن الهدف الذي سطره المستشرقون في ترجمة القرآن الكريم فالملاحظ أن اتجاهات المترجمين قد تغيرت تبعا لتغير الأزمنة وتباين الشعوب واللغات والأنظمة السياسية والاتجاهات الدينية ولهذا انتهجوا طرقا عدة في ترجماتهم، فمنهم من تصدى له بالترجمة كلة، ومنهم من ترجم بعض السور منه ومنهم من أرفقها بمقدمات طويلة حول الإسلام وحياة الرسول صلى الله عليه وسلم وأسباب النزول وصعوبة الترجمة وذلك قصد تهيئة الأجواء و توطئة الأروية للقارئ الأوروبي فيضعه في أجواء النص القرآني كي يدرك معانيه ومقاصده.

وقد اختلفت مسالك المترجمين اللسانية أيضا، فمنهم من اختار أن يكون وفيما للغة العربية (الانطلاق)، ومنهم من فضل أن يكون وفيما للغة المنقول إليها (الوصول/ الهدف) كما أن الجانب الشكلي قد عرف هو الآخر تباينا واختلافا، فمن المستشرقين من انتهج طريقة في ترتيب السور على حسب تاريخ النزول وهي طريقة تختلف عن الطريقة التي اشتغل بها المستشرقون الأوائل عندما حافظوا على ترتيب السور وفق الترتيب العثماني . ولتبيان المعالم الأساسية والخطوط العريضة للمنهج الذي انتهجه المستشرقون في ترجمة القرآن الكريمة سنتبع الخطوات الآتية:

- أ- عناوين الترجمات.
- ب- ترجمة أسماء السور.
- ت- المقدمات والتوطئات.
- ث- إضافة التذييلات والحواشي.
- ج- ترتيب الآيات والسور وفق منطق خاص.
- ح- أخطاء طالت المعاني.
- خ- سمة الحذف والإضافة.
- د- التحريف المعجمي.

أ- عناوين الترجمات:

تضمنت العناوين التي ارتضاها المترجمون لترجماتهم النهج الذي ساروا عليه، فمنهم من عنون عمله بـ: "ترجمة القرآن" Traduction du Coran مثل "R. BLACHERE" الذي ينظر إلى القرآن على أنه نص مثل بقية النصوص

ومن هذا المنطلق يمكن ترجمته، ومنهم من عنونه: "ترجمة معاني القرآن الكريم" لأنهم يرون استحالة ترجمة إعجاز النص القرآني فيلجأون إلى ترجمة معانيه معتمدين في ذلك على التفسيرات المختلفة التي وضعت للنص الأصلي مثل تفسير الطبري والزمخشري والرازي. ومن هؤلاء صلاح الدين كوشريد:

Initiation à l'interprétation objective du texte intraductible du Saint Coran.

ومحمد حميد الله:

Le Saint Coran, Ed. Amana Corporation. France. 1989.

ونور الدين بن محمود:

Essais de traduction du Coran. Beyrouth. 2004.

ب- ترجمة أسماء السور:

لقد سلك المستشرقون مسالك غريبة في ترجمة أسماء سور القرآن الكريم وطبقوا عليها صيغا ليست هي الصيغ التي نزلت بها. وإذا كنا نعرف أن الإبدال تقنية وأسلوب يمكن اللجوء إليه بشكل إجباري أو اختياري لكن المعروف أيضا أن هذا الأسلوب لا يحقق تكافؤا أسلوبيا بين اللغتين وأن الانتقال من صيغة نحوية إلى فئة نحوية أخرى في الترجمة يطرح دائما سؤالا عن قدرة هذه الصيغة الحلول محل الصيغة الموظفة في نص المصدر، بالإضافة إلى سمة غلبت على هذه الترجمات وهي وضع اسمين للسورة الواحدة. وهذه أمثلة عن التشوهات التي أصابت أسماء بعض السور سواء بالتحويل في الفئة النحوية أو عن طريق الازدواجية:

اسم السورة	ترجمة السورة	المعنى	المترجم
الذاريات	Vanner من اسم الفاعل صيغة الجمع إلى فعل	الرياح التي تذبذبا الغبار فتفرقه وتحمل الرمال من مكان إلى آخر	جاك بيرك P.567
غافر	Le croyant ou l'indulgent	المؤمن أو الغافر (في الترجمة)	جاك بيرك P.503
التوبة	Le repentir ou la dénonciation	التوبة أو البراءة (في الترجمة)	جاك بيرك P.197
الإسراء	Le trajet nocturne ou les fils d'Israël	بنو إسرائيل	جاك بيرك P.292
فاطر	Créateur intégral ou les anges		جاك بيرك P.464

إن هذه الازدواجية في تسمية سور القرآن الكريم في ترجمته أدت باعتقاد القارئ الأوروبي أن هناك إشكال وخلاف في إطلاق الأسماء على السور وقع فيه هؤلاء الذين قاموا بجمعه لأن التعليقات والتوضيحات حول أسباب النزول وحول البيئة العربية ترسم للقارئ الأوروبي صورة عن طبيعة البيئة التي نزل فيها القرآن وتعمق هذه الأطروحة إشكالية عملية الجمع والكيفية التي تم بها.

ت- المقدمات والتوططات:

أرفق بعض المستشرقين ترجمات القرآن الكريم بمقدمات وتوططات تضمنت هذه المقدمات تاريخ الإسلام وأسباب النزول ثم حياة الرسول صلى الله

عليه وسلم، وقد أطلق "بلاشير" على هذه المقدمة عنوان: Introduction au coran (1976) تضم 310 صفحة تناول فيها:

1- طريقة تدوين القرآن وجمعه

2- وصف للمصحف العثماني

3- بعض الانتقادات

4- حوصلة للترجمات الأوروبية

أما في طبعة 1980 فقد اختصر هذه المقدمة حتى لا تتجاوز العشر صفحات تعرض فيها إلى قضايا أخرى لم يشير إليها في الطبعة الأولى إذ تناول فترات الدعوة، اختلاف القراءات لكثير من الآيات كما أشار أيضا إلى مسألة ترتيب السور التي رأى فيها ضرورة التدرج فيها بالاعتماد على طولها يقول: "لم تعد هذه النصوص القرآنية تظهر على حسب تسلسل نزول الوحي، وإنما على حسب تدرج طول سورها تنازليا، وبناء على ذلك يمكن القول بشكل مطلق أننا نقرأ القرآن اليوم مقلوبا، لأن النصوص الأولى وهي الأطول هي على العموم آخر النصوص التي وصلت إلى محمد". (9)

أما جاك بيرك فقد ألحق على "محاولات ترجمة معاني القرآن مقدمة دّيل بها ترجمته لأنه يرفض حتى أن نسميها مقدمة لأن القرآن كما يقول لا يقدم وإن كلام الله لا يجب أن يكون مسبوقا بكلام بشر، تقع المقدمة الموسومة «En relisant le coran» 97 صفحة وقد ضمنها العديد من الأذكار التي أراد طرحها حول القرآن الكريم كما كشفت أيضا عن المنهج المتبع في التعامل مع هذا النص الإعجازي على مستوى شكله ومضمونه، فقد وضح على مستوى الشكل

قضية ترتيب السور القرآنية وعلاقتها بزمان النزول وأسبابه كما وضع أيضا كيفية تعامله مع الألفاظ والمصطلحات ذات الحمولة الدينية التي تحتاج إلى وقفة قصد انتقاء مقابلاتها وقد لجأ في ذلك إلى التفاسير التي ساعدته على حد قوله في عمله⁽¹⁰⁾ كما أضاف في هذه المقدمة فهرسا خاصا بالأعلام وقائمة السور مرتبة ترتيبا أبجديا، يقول "جاك بيرك": "إن ترتيب السور في المصحف لا يتوافق مع الترتيب الزمني للنزول، والأدهى من ذلك أننا نجد في إطار السورة الواحدة آيات نزلت في أوقات متباعدة ولا ترى العقيدة ولا علوم الإسلام أي إشكال أو حرج في ذلك، بل إن التنافر بين ترتيب الكل قد يتعاضم في بعض الأحيان ليصل إلى حد التناقض كما في سورة الأنفال وسورة التوبة أو حتى سورة الفاتحة".⁽¹¹⁾

ث- إضافة التذييلات والحواشي:

لتوضيح ما قد يبدو مبهما للقارئ الأوروبي، لجأ المترجمون إلى إضافة تعليقات و حواشي لكن المثير للانتباه هو أن بعض هذه التعليقات لم تخدم الهدف من وجودها بل كثيرا ما شوشت على ذهن هذا المتلقي. وهذه التذييلات والحواشي الموضوعة لكل سورة أو حتى لكل آية كانت بعيدة كل البعد عن ذهنية هذا القارئ فعندما يضيف جاك بيرك حاشية للآية [108] من سورة الأنعام⁽¹²⁾ يقول:

Verset allégué comme base à la théorie malékite du saad al-dharai al mufsida, éliminations des incidences préjudiciables.⁽¹³⁾

ويقصد من هذه الحاشية توضيح القاعدة النظرية التي تستند إليها هذه الآية وهي: سد الذرائع المفسدة عند المذهب المالكي، وهذه المعلومة لا فائدة

منها، لأن القارئ الأوروبي لن يفهمها لا في صيغة الافتراض المشروح ولا حتى بترجمتها اعتمادا على المقابلات لأن المقابل ليس بالضرورة مكافئا خاصة عندما يتعلق الأمر بالألفاظ ذات الحملات الدينية وهذا الأمر راجع إلى المذاهب الدينية الأربعة وكيفية تفسيرها لهذه الآية.

ولا يتوانى بعض المستشرقين في تأكيد الأصول اليهودية للقرآن فمنهم من بحث في جذور بعض الألفاظ ليرجعها إلى اللغة العبرية كما فعل "شواركي" عندما ترجم بسم الله الرحمن الرحيم بـ: *Au nom d'Allah le matriciant* فقد ترجم الرحمن بـ: *matriciant* بحجة أن كلمة الرحيم تعني الرحم وهنا نلاحظ خلطا بين ما هو قرابة لغوية وما هو علم صرف و دلالة الأوزان وترجمتها في اللغات الأخرى لكن "شواركي" لا يخفي نيته في البحث عن إثبات أصول الكلمات في اللغة العبرية وصلتها باللغة العربية متجاهلا التطور الذي أصاب الكلمات في رحلتها بين اللغتين. (14)

ج- ترتيب الآيات والسور وفق منطق خاص:

إن ترتيب آيات السور في القرآن الكريم له دلالة، وأن أي تغيير في ترتيب مقاطع الآيات سوف يؤدي إلى اختلال المعنى، فالتقديم والتأخير قد يضر بعملية التدرج التي تقدم المعنى من الجزء إلى الكل وفي ذلك إعجاز فعندما يقول تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ "لقمان" [29]، ويترجمها "بيرك" بـ:

... Dieu fait pénétrer le jour dans la nuit, la nuit dans le jour...

إن هذا التقسيم والتأخير بين مقاطع هذه الآية يؤدي إلى طرح تساؤل مفاده هل الليل أسبق من النهار أم أن النهار هو الأسبق وما دام الله تعالى قد جعل من الليل يلج النهار فيعني ذلك أنه الأسبق وكان على "بيرك" الحفاظ على هذا الترتيب لأن خالق الكون أعلم بذلك.

ولا يتوانى "بلاشير" من التشكيك في ترتيب السور بل ويتجاوز ذلك إلى الزعم أن بعض الآيات ليست في موضعها الصحيح، ففي سورة الصافات في قوله تعالى في الآيتين: [88] [89]: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ (88) فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ (89)﴾⁽¹⁵⁾ موضعها هذا غير صحيح من وجهة نظره ويرى أنه لا بد من ترتيبها بعد الآية [90] وفي هذا تشكيك وبث روح الريب في كيفية التي تم بها جمع القرآن الكريم وكأن الأمر فيه إشكال حتى يؤكد على مصداقية طرحه في نفي ألوهية القرآن.

ح- أخطاء طالت المعاني:

تجاوزت أخطاء مترجمي القرآن الكريم جانبه الشكلي لتتطال بعض المعاني والنماذج الآتية تبرهن بشكل قاطع عن معضلة الترجمة في تعاملها مع النصوص الأدبية، ما بالنا بالقرآن الكريم كلام الله الموحى بوساطة جبريل عليه السلام إلى النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وقد أنزل بلسان عربي مبين ومعجز، فهل منهج الترجمة الحرفية منوط به تحقيق الترجمة الصحيحة أم منهج الترجمة المعنوية "التي تنطلق من تقسيم أي نص بليغ إلى معان أصلية وأخرى ثانوية"⁽¹⁶⁾

أم أن منهج الترجمة التفسيرية التي تقوم على ما أدركه المفسر لمعاني القرآن دون اللجوء إلى أوجه التأويل المحتملة لها، هي الأقدر على ذلك.

فعندما تترجم الآية [213] من سورة البقرة والتي يقول فيها الله تعالى:

﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ على النحو الآتي:

Mais dieu avait guidé les croyants à diverger avec son autorisation sur tels points de la vérité.

فلو عكسنا العملية وقمنا بالترجمة من نص "بيرك" إلى اللغة العربية لما استطعنا الحصول على الآية كما وردت في معناها وإنما لكانت على النحو الآتي: "لكن الله هدى المؤمنين إلى الاختلاف بموافقة حول نقاط معينة من الحقيقة والسؤال المطروح هل هذا هو معنى الآية؟ في حقيقة الأمر يقصد الله تعالى أن المؤمنين قد وفقوا إلى تمييز الحق من الباطل واستطاعوا إدراك ما اختلفوا فيه لكن الترجمة عند "بيرك" قلبت الحقيقة وجعلت من الله قد أرشد المؤمنين بإذنه إلى الاختلاف.

خ- سمة الحذف والإضافة:

عمد بعض المترجمين إلى حذف بعض العبارات الواردة في القرآن الكريم كما أضافوا عبارات أخرى صرفت في كثير من الأحيان القارئ عن المعنى الحقيقي للآية. ففي قوله تعالى في الآية [110] من سورة المائدة: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ

النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿١٠٠﴾
جاءت ترجمة بيرك:

Lors Dieu dit: Jésus, fils de Marie, rappelle-toi mon bienfait sur ta mère et sur toi...

ترجمها كازيمرسكي الذي غير في ترتيب الآية التي قسمها إلى قسمين
ورقم كل قسم على حدة وكأنهما آيتين مختلفتين، يقول:

Il dira à Jésus fils de Marie: souviens-toi des bienfaits que j'ai répandu sur toi et sur ta mère.

استعمل المترجم الثاني ضمير الغائب (il) عوضاً عن اسم الجلالة (الله) مهملاً أداة النداء مستخدماً زمناً يضيفي سمة المستقبل على الآية (سيقول لعيسى بن مريم) بالإضافة إلى الصيغة التي صبت فيها الآية مما أبعدا كلياً عن معناها الصحيح.

وفي الآية نفسها حذف "بيرك" عبارة "فتكون طيراً" واكتفى بالشرط الأول من الآية قائلاً:

Et que tu créais d'argile comme: une forme d'oiseau, non sans ma permission.

كما أضاف كازيمرسكي: في الآية نفسها عبارات كثيرة بدت له شارحة ومقربة للمعنى، متجاهلاً أن النص مقدس وأنه كلام الله ولا يمكن لبشر حتى في مجال الترجمة أن يتجاوزوه إضافة ونقصاناً. فأضاف ما يلي:

Tu formas de boue, la figure d'un oiseau, par ma permission, ton souffle l'anima, par ma permission, tu guéris un aveugle de naissance... tu fis sortir des morts de leurs tombeaux... je détournai de toi les mains de juifs, au milieu des miracles que tu fis éclater à leurs yeux.⁽¹⁷⁾

انخرفت ترجمة كازميرسكي بهذه الإضافات الكثيرة للنص الأصلي وإذا كان التصنيف الوظيفي لتقنيات الترجمة يعتبر الإضافة أسلوباً من أساليبها إما لتوضيح العبارة المبتورة على حد قول "نايدا" أو لتجنب التباس في لغة الهدف أو للتعبير بشكل أوضح عن عناصر وردت بطريقة ضمنية في لغة المصدر وقد تجاوزت هذه التقنية الزيادة في العناصر اللسانية إلى إضافة معلومات سياقية أو ثقافية وهي التي تدخل ضمن ما يعرف بالمكافئ الوظيفي.

وإذا كان منطلق "نايدا" هو "الإنجيل"، وإذا كانت تطبيقاته لها مصداقية ما، فإن الحذف والإضافة في ترجمة معاني القرآن الكريم يشوه كثيراً هذه المعاني وبدلاً من تقريبها من القارئ الأوروبي، يبدو أنها تبعده كثيراً عن حقيقة ورودها ودلالاتها الصحيحة في سياق كلام منزل. فعندما يضيف لفظة "le premier" في ترجمة الآية [81] من سورة آل عمران: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْنَاكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ إلى:

Il dit: «alors témoignez, je serai avec vous le premier à témoigner.

1- إضافة لفظة "le premier" التي لم ترد إطلاقاً في الآية، لا صراحة ولا بشكل ضمني.

2- الإبدال في الفئات النحوية وعدم تحقيق التكافؤ الأسلوبي.

3- على مستوى الشكل إضافة علامات مثل: "و" وكأن النص نص أدبي بحاجة إلى هذه العلامات الوقفية.

د- التحريف المعجمي:

لفظ أمي: كثيراً ما شكك المستشرقون في أمية الرسول صلى الله عليه وسلم إذ كانوا يعتقدون أنه كان يعرف القراءة والكتابة ولهذا السبب عمدوا إلى تغيير هذا اللفظ في ترجماتهم كي لا يتعارض ووجهة النظر هذه. فهذا "جاك بيرك" عندما ترجم الآية [157] من سورة الأعراف ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ ۙ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾⁽¹⁸⁾ يقول:

En faveur de ceux qui suivent l'envoyé, le prophète natif qu'ils trouvent chez eux inscrit dans la torah comme dans l'évangile.⁽¹⁹⁾

وهكذا تغير لفظ أمي وانزاح انزياحاً كلياً عن معناها ليعوضه المترجم بلفظ آخر هو (natif) التي تعني المولود، والقارئ الأوروبي لن يدرك حقيقة هذه المعجزة التي جعلت من الرسول الأمي حاملاً للرسالة مبشراً بها ونذيراً.

ولكي يستطيع المترجم والمتلقي على حد سواء فهم القرآن الكريم قبل نقل معانيه "البيئة التي نزل فيها القرآن، وأسباب نزول الآيات والسياقات التي نزلت فيها إضافة إلى فهم الخصائص البلاغية والبيانية التي تتمتع بها اللغة العربية ومن ثم نقلها بكل دقة وأمانة دون إضافة أو حذف أو تغيير للمعنى". (20)

إن الملفت للانتباه أن المستشرقين في ترجماتهم للقرآن الكريم قد وقعوا في أخطاء جمة، أخطاء ذات مصادر متباينة منها ما هو ناتج عن جهل بخصائص اللغة العربية وطرائقها التعبيرية ومنها ما هو نابع من هدف ونية مسبقة في إنجاز مثل هذا العمل ولا ندعي أن كل المستشرقين اقتربوا من هذا النص باتجاهات مناهضة للإسلام لكنهم في مجملهم وقعوا في أخطاء على مستوى الشكل وعلى مستوى مضمون الرسالة فحادث بعض السور عن معانيها وانخفض مستوى الإعجاز القرآني النابع من "جمال ألفاظه وحسن نظمه وسمو معانيه وأثره في النفوس". (21)

ونرى غالبية الباحثين المسلمين أن المستشرقين قد أضروا بالإسلام أكثر مما أفادوه لأن دافعهم الأول في كل أعمالهم كان دينيا واستعماريًا فكرس البعض منهم جهودهم لإظهار مساوئ هذا الدين وتناقضاته قصد اجتذاب المسلمين إلى الدين المسيحي ورأي البعض منهم أن الرسول ساحر وأنه لم يفلح في الوصول إلى كرسي البابوية فاخترع لنفسه دينًا جديدًا انتقامًا من أصحابه (22)، ولم يدخر المستشرقون جهدًا في استخدام بعض المصطلحات الدينية من اليهودية والمسيحية في ترجمة القرآن الكريم حتى يؤكدوا فكرة أن القرآن قد تأثر بهاتين الديانتين فكلمة "Apôtre" مثلاً ليست مقابلاً صحيحاً لكلمة رسول، وقد استخدمها "كازيميرسكي" ونحن نعلم أنها كلمة مسيحية تعني الحواري نسبة إلى الحواريين وهم

أتباع النبي عيسى عليه السلام، وكان أجدرنا به أن يقابلها بـ "messenger".
وخلاصة القول إن الإقدام على ترجمة معاني القرآن الكريم عمل جليل، يقتضي
تضافر جهود هيئة كاملة يتكامل عملها لأن القرآن نزل على محمد كي يدعو
البشرية جمعاء ومادامت البشرية ذات ألسنة متعددة فكان لا بد من نقله إلى هذه
اللغات "لكن لا يجب أن يغيب عن بالنا أن انتقال النص الديني من لغة إلى
أخرى يقتضي تغيير النسق الدلالي الخاص باللغة الأصلية وابتداع نسق دلالي آخر
قد يضيف أو ينقص مما ورد في الكلام الأصيل في اللغة الأصلية التي اختارها
النبي ليخاطب بها الناس"⁽²³⁾ وقد حاول "بيرك" توخي الحذر والاستفادة من
سبقوه لكنه وإن حاول تكملة نقصان ترجمة "كازيمرسكي" وتصحيح تصورها في
كثير من الأماكن، لكنه وقع في أخطاء كثيرة أشار إليها "الشيخ محمود العزب"
في رسالة إليه⁽²⁴⁾ وقد طلب بيرك إقامة حوار عميق مع مشايخ الأزهر قصد
توضيح بعض الأمور والوقوف على بعض القضايا التي أتفق مع هؤلاء العلماء
حول تصحيحها كما وافق أيضا على مناقشة جزء منها ولم يقتنع بعدد منها يقول
بيرك: "منذ الآن يمكن أن أقول لك إن عمل محمود العزب كان مفيدا جدا،
حيث ساعدني على اكتشاف نواقص مخجلة سارعت بتصحيحها وبالنسبة
للملاحظات الأخرى لست موافقا عليها".⁽²⁵⁾

في الأخير لا بد من وقوف هيئة علمية على المساوئ التي تعج بها
الترجمات المتداولة للقرآن الكريم فمنها ما يحرف الكلم عن موضعه ومنها ما ينم
عن قصور في فهم النص القرآني ناتج عن نقص معلومات المترجم العلمية أو
التاريخية ومنها ما كان مقصودا لذاته وعلى هذا الأساس لا بد من نشر النص في

لغته إلى جانب الترجمة لتكون المقارنة معولا يسهم في إبراز الاختلاف وتدارك النقصان.

هوامش:

القرآن الكريم، بالرسم العثماني، مختصر تفسير الطبري، إدارة البحوث الإسلامية و النشر في الأزهر، مصر، دت.

1- ساسي سالم الحاج، نقد الخطاب الاستشراقي، دار الكتب الوطنية، ليبيا، ط1، 2002، ص172.

2- طه حسين، حديث الشعر والنثر، ص25.

3- سعيد اللاوندي، إشكالية ترجمة معاني القرآن الكريم مركز الحضارة العربية، القاهرة، ط1، 2001، ص21-22.

4- أحمد حسن الباقوري، أثر القرآن الكريم في اللغة العربية، دار المعارف، مصر، ط3، 1983، ص32-33.

5- محمد صالح البنداق، المستشرقون وترجمة القرآن الكريم، دار الآفاق الجديد، بيروت، ط2، 1983، ص54.

6- سعيد اللاوندي، مرسى، ص146.

7- محمد صالح البنداق، مرجع س، ص131.

8- سعيد اللاوندي، مرجع س، ص27.

9- Régis BLACHERÉ, Le Coran, Coll. Que Sais- Je ? Ed. PUF, Paris, 1976, P.38.

10- ينظر: سعيد اللاوندي، مرجع س، ص74.

- 11- Jacques BERQUE, Essais de traduction du Coran Ed. Maisonneuve, Paris, 1995, PP.714-715.
- 12- القرآن الكريم، مختصر تفسير الطبري، سورة الأنعام، الآية 108، ص27.
- 13- Jacques BERQUE, Op.cit, P.503.
- 14- ينظر: محمد خير البقاعي، ترجمات القرآن الكريم، مجلة الفيصل، ع239، أكتوبر 1996، ص37.
- 15- القرآن الكريم، الصفات الآيتين 88-89، ص226.
- 16- سعيد اللاوندي، مرجع س، ص38.
- 17- voir: Hadroug MIMOUNI, L'Islam agressé, Ed. ENAL, Algérie, 1990, P. 106.
- 18- القرآن الكريم، الأعراف، الآية 157، ص86.
- 19- Jacques BERQUE, Op.cit, P.181.
- 20- ليلي عبد الرزاق عثمان، إشكالية ترجمة معاني القرآن الكريم، مجلة ثقافة وفكر، محور: الإستشراق والإعجاز في القرآن الكريم، ع/أبريل 2007 (بحوث القرآن وعلومه).
- 21- سعيد اللاوندي، مرجع س، ص23.
- 22- ينظر: محمد حسين علي الصغير، المستشرقون والدراسات القرآنية، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط2، 1986، ص16.
- 23- سعيد اللاوندي، مرجع س، ص129.
- 24- ينظر: مرجع س، ص153.
- 25- مرجع س، ص ن.